- «**تنفس جسد الصحراء**، فأحس بدنه يعلو ويهبط فوق صدرها» (ص ١٦٢).

ولم تتوقف عملية انسنة الصحراء عند احساس الانسان بانسانيتها، لكنها تتعدى ذلك لكي تصبح كياناً انسانياً يحس بذاته... ويستشعر خطوات الزمن الجديد وهو يطرق بدنها...

- «وكنت مبسوطة أمامه، مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهي تدق في **لحمي**» (ص ١٧٣).

والصوت الأخير هو صوت الصحراء، فهو واحد من الأصوات الثلاثة التي تتدفق بمشاعرها على امتداد الرواية. وهي واحدة من أبطالها الخمسة، تمثل المكان، مثلما تمثل فيها الساعة الزمان الذي يدق دقاته القاسية، شخصية اخرى، إضافة إلى الشخصيات الانسانية الثلاث: حامد ومريم وزكريا.

إن الصحراء، التي تبدت في الرواية الاولى، مكاناً معادياً قاد الرجال إلى موتهم المحتم تحت لهيب شعاع الشمس، تحولت في الرواية الثانية إلى كيان متعاطف تتم فوق رمالها بذور المواجهة الاولى. ففوق رمالها، التقى «حامد» وجهاً لوجه مع جندي اسرائيلي، وفوقها رفع خنجره في وجه عدوه، ليحقق أول خطوة على طريق الفعل الحقيقي، ويحول الصحراء إلى مكان يشهد موت الأعداء بعد أن ظل زمناً طويلاً يشهد موت الفلسطيني.

هكذا تنقلب الدلالة المكانية للصحراء في الروايتين، فهي في الاولى أرض للموت، وفي الثانية أرض للمواجهة. والزمن وحده هو الشاهد على هذا التحول.

لكن المكان يبقى عاجزاً عن ان يعطي من نفسه قوة الزمان، فالصحراء تعلن عجزها عن ذلك «ولكن شيئاً واحداً لا استطيع اعطاؤه: الوقت» (ص ١٧٧).

وفي اللحظة التي يجلس فيها «حامد» في مواجهة عدوه، يُخضع مسألة الزمان والمكان إلى حسابات الربح والخسارة. فإن كان قد خسر الزمان في الماضي، فإن المكان لصالحه في تلك اللحظة، فالوقت «لا يمكن أن يكون ضدنا نحن الاثنين معاً، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك مما أتصور ولكنك أقرب إلي مما يتصورون. والقصة كما ترى، قصة مسافة ليس غير، وربما زمن ايضاً. حسناً، ولكنني لا اكترث بالزمن كما ترى، والمسافة لصالحي فأنت اقرب إلى نصل سلاحي مما انا إلى فوهات بنادقهم» (ص ٢٠٩).

لقد خسر «حامد» زمنه الذي استبق لحظة ارتفاع السكين في وجه عدوه، فما كان الزمن يعنيه. فقد عاش طويلاً مع رتابة دقات ساعة الحائط التي تشبه النعش الصغير، بمعنى أنه عاش زمن الموت (الساعة / النعش)، وهو ذات الزمن الذي ظل يدق طويلاً في رأس «مريم»، فيبعث فيها إحساساً مريراً بتسرب العمر... وتحاول أن تلحقه، فتلقي بجسدها في أحضان «زكريا» الخائن، والنتن. وها هو صوت «مريم» يعلن أن «... مرور